الرحـلة الحادية عشر

الرِّحْلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ: (يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا) سَفِينَةَ الْآخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ.

رُكَّابَنَا الْأَفَاضِلَ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ. أَسْأَلُ اللهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْمُثْلَى، أَنْ يَمُدَّنِي وَإِيَّاكُمْ بِعَوْنِهِ، وَأَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا صَالِحَ أَعْمَالِنَا، وَيُصْلِحَ لَنَا أَنْفُسَنَا، وَيَأْخُذَنَا إِلَى مَوَاطِنِ الطَّاعَةِ، وَيُجَنِّبَنَا مَوَاطِنَ الْمَعْصِيَةِ.

فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى الَّذِي نَعْبُدُهُ وَنُوَحِّدُهُ وَنُحِبُّهُ وَنُعَظِّمُهُ وَنُجِلُّهُ، يَجِبُ أَنْ يَرَانَا حَيْثُ أَمَرَنَا، وَيَجِبُ أَلَّا يَرَانَا حَيْثُ نَهَانَا.

فَإِنَّ الْفَائِزَ الْمُفْلِحَ فِي هَذِهِ الْأَزْمِنَةِ الْعَصِيبَةِ مَنْ فَرَّ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَاسْتَعَانَ بِهِ عَلَى النَّجَاةِ مِنَ الرَّدَى وَالْمَهَالِكِ وَالْفِتَنِ الْمَعْرُوضَةِ عَلَى الْقُلُوبِ، يَعْضُدُ بَعْضُهَا بَعْضًا؛ فَلَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْ ذَلِكَ إِلَّا إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا، وَهُوَ حَسْبُنَا، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ.

فَمَنْ شَاءَ اللهُ لَهُ الْخَيْرَ، رَاقَبَ رَبَّهُ، وَخَافَ ذَنْبَهُ، وَعَصَى هَوَاهُ، وَأَطَاعَ مَوْلَاهُ، وَأَنَابَ إِلَيْهِ وَدَعَاهُ؛ وَذَلِكَ قَبْلَ فَوَاتِ الْأَوَانِ، وَذَهَابِ الزَّمَانِ، وَانْقِضَاءِ الْعُمُرِ، وَانْكِشَافِ السِّتْرِ. وَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَالآن، يَا مَعْشَرَ الرُّكَّابِ الْأَفَاضِلِ، وَرَدَتْ إِلَيْنَا مِنْ غُرْفَةِ الْمُرَاقَبَةِ -بَعْدَ اسْتِكْمَالِ الِاسْتِعْدَادِ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ- الْإِشَارَةُ بِبَدْءِ انْطِلَاقِهَا ، فَـ﴿ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الآخِرَةِ

وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هُودٌ: 41]. وَأَقُولُ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزُّخْرُفُ: 13-14].

تَفَقَّدُوا أَمْتِعَتَكُمْ وَلَوَازِمَكُمْ، وَلَا تَنْسَوْا أَيْضًا تَفَقُّدَ زَادِكُمْ؛ ﴿وَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [الْبَقَرَةُ: 197]. فَهِيَ وَصِيَّةُ رَبِّكُمْ لَكُمْ، وَلَا أَظُنُّكُمْ تَرْفُضُونَهَا وَتَرُدُّونَهَا وَتَلْتَفِتُونَ إِلَى وَصِيَّةِ غَيْرِهِ، فَقَدْ قَالَ رَبُّكُمْ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النِّسَاءُ: 131].

إِنَّمَا التَّقْوَى هِيَ الْعِزُّ وَالْكَرَمْ * وَحُبُّكَ الدُّنْيَا هُوَ الذُّلُّ وَالْعَدَمْ**

وَلَيْسَ عَلَى عَبْدٍ تَقِيٍّ نَقِيصَةٌ * إِذَا صَحَّتِ التَّقْوَى وَإِنْ حَاكَ اللُّجَامَ**

اسْتَحْضِرُوا نِيَّةَ التَّعَبُّدِ للهِ جَلَّ وَعَلَا مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّيِّبَةِ، فَإِنْ صَلُحَتِ النِّيَّةُ فِيهَا أَثْمَرَتْ خَيْرًا كَثِيرًا، وَجَلَبَتْ أَجْرًا عَظِيمًا، وَحَصَّلَتْ ثَوَابًا جَزِيلًا، «وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى» كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ المُصْطَفَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. احْذَرُوا أَنْفُسَكُمُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ، وَلَا تَغْفُلُوا أَيْضًا عَنْ عَدُوِّكُمْ إِبْلِيسَ وَأَعْوَانِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، لَاسِيَّمَا أُولَئِكَ السَّاعُونَ الْجَادُّونَ فِي سَرِقَةِ أَوْقَاتِكُمْ وَالذَّهَابِ بِكُمْ إِلَى مَا يَضُرُّكُمْ وَلَا يَنْفَعُكُمْ.

فَإِنَّ (قِيَادَةَ) السَّفِينَةِ المُاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ تَتَمَنَّى لَكُمْ سَفَرًا مُمْتِعًا، مُرِيحًا، نَافِعًا، آمِنًا، مُطْمَئِنًّا.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمَاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

يَا عَبْدَ الله، يَا أَمَةَ الله، يَا رَاكِبَ السَّفِينَةِ الْمَاخِرَةِ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ: لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مَنْ يُذَكِّرُكَ بِالله رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُكَ فِي عِلْمِكَ مَنْطِقُهُ، وَتُرَغِّبُكَ فِي الطَّاعَةِ صُحْبَتُهُ، وَتُعِينُكَ عَلَى الِاسْتِعْدَادِ لِلْآخِرَةِ مُجَالَسَتُهُ؛ فَذَاكَ الصَّاحِبُ حَقًّا، خَلِيلُكَ وَصَفِيُّكَ وَرَفِيقُ دَرْبِكَ الْمَأْمُونُ لِلْوُصُولِ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّكَ.

مَعْشَرَ الرُّكَّابِ الْكِرَامِ، سَنُبْحِرُ هَذِهِ الْمَرَّةَ -فِي رِحْلَتِنَا الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- فِي آخِرِ مَوَانِئِ الدُّنْيَا، مِينَاءِ (**الِاحْتِضَارِ**)، كُتِبَ عَلَى وَاجِهَتِهِ بِالْخَطِّ الدِّيوَانِيِّ مِينَاءَ الْوَدَاعِ الْأَخِيرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ آخِرُ لَحَظَاتٍ فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ يُفَارِقُ الدُّنْيَا وَيُقْبِلُ عَلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ عَبْرَ أَوَّلِ بَوَّابَةٍ لَهَا، أَلَا وَهُوَ عَالَمُ الْبَرْزَخِ، أَعْنِي: عَالَمَ الْقَبْرِ، الَّذِي يُعَدُّ أَوَّلَ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ كَمَا جَاءَ فِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ، وَسَيَأْتِينَا الْكَلَامُ مُفَصَّلًا عَنْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

إِنَّ نَفْسَ الْإِنْسَانِ لَتَتَعَلَّقُ بِالدُّنْيَا، وَتَأْتِي جُمْلَةٌ مِنَ الْأَسْئِلَةِ فِي هَذَا الْمَوْطِنِ: أَيْنَ تَذْهَبُ الرُّوحُ؟ وَأَيْنَ يَذْهَبُ الْجَسَدُ؟ هَلْ تَبْقَى الْعَلَاقَةُ بَيْنَهُمَا؟ وَهَلْ يَفْنَى الْجَسَدُ كُلُّهُ؟ كَيْفَ تَعِيشُ الرُّوحُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْجَدِيدِ؟

هَلْ يَبْقَى لَهَا تَعَلُّقٌ بِالدُّنْيَا مِنْ وَجْهٍ؟ هَلِ الْأَرْوَاحُ كُلُّهَا سَوَاءٌ فِي عَالَمِ الْبَرْزَخِ؟ مَا هُوَ نَوْعُ الْحَيَاةِ الَّتِي تَعِيشُهَا الرُّوحُ فِي الْبَرْزَخِ إِنْ كَانَتْ مُؤْمِنَةً أَوْ فَاجِرَةً؟ وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَسْئِلَةِ الَّتِي تَمُرُّ فِي الْخَوَاطِرِ وَتَجْرِي فِي الْأَذْهَانِ. سَنُحَاوِلُ بِإِذْنِ الله جَلَّ وَعَلَا الْإِجَابَةَ عَنْ بَعْضِهَا بِمَا عَلَّمَنَا اللهُ تَعَالَى.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

مَعْشَرَ الْإِخْوَةِ الرُّكَّابِ، هَكَذَا تَمْضِي الْحَيَاةُ وَيَمُرُّ الزَّمَنُ، وَيَنْفَدُ الْعُمُرُ، وَيَحِينُ الْأَجَلُ، وَيَحِلُّ الْقَضَاءُ، وَتُقْبَضُ الرُّوحُ، وَتُفَارِقُ الْبَدَنَ بَعْدَ مُصَاحَبَتِهِ (طَالَتْ أَوْ قَصُرَتْ).

وَذَلِكَ بَعْدَ حَيَاةٍ حَافِلَةٍ بِالْأَحْدَاثِ: أَفْرَاحٍ وَأَتْرَاحٍ، وَمَسَرَّاتٍ وَأَحْزَانٍ، وَضَحِكٍ وَبُكَاءٍ، وَضِيقٍ وَفَرَجٍ، وَعُسْرٍ وَيُسْرٍ، وَصَفْوٍ وَكَدَرٍ، وَهَنَاءٍ وَشَقَاءٍ، وَصِحَّةٍ وَتَعَبٍ، وَرَاحَةٍ وَعَنَاءٍ، وَفَقْرٍ وَغِنًى، وَغَضَبٍ وَرِضًا، وَغَفْلَةٍ وَيَقَظَةٍ، وَخَيْرٍ وَشَرٍّ، وَمَعْصِيَةٍ وَطَاعَةٍ، وَعِزٍّ وَذُلٍّ، وَإِسَاءَةٍ وَإِحْسَانٍ، وَعَافِيَةٍ وَبَلَاءٍ، وَمِحْنَةٍ وَمِنْحَةٍ، وَخَوْفٍ وَأَمْنٍ، وَرِفْعَةٍ وَضَعَةٍ، وَعِلْمٍ وَجَهْلٍ، وَحِلْمٍ وَسَفَهٍ، وَمُلْكٍ وَسُوقَةٍ، وَإِنْجَابٍ وَعُقْمٍ، وَحَرْبٍ وَسِلْمٍ، وَجَفَاءٍ وَمَوَدَّةٍ، وَمُوَالَاةٍ وَعَدَاوَةٍ، وَسَعَادَةٍ وَشَقَاوَةٍ...

أبي قتيبة عمر بن محمد الطاهر شابي

بَعْدَ كُلِّ هَذِهِ الصِّرَاعَاتِ الطَّوِيلَةِ، يُسَلِّمُ الْعَبْدُ نَفْسَهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لِقَدَرِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا، مِنْ غَيْرِ مُرَاجَعَةٍ وَلَا مُمَانَعَةٍ. إِنَّمَا هِيَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي غَابَتْ عَنْ ذِهْنِهِ وَتَفْكِيرِهِ، وَمُنِعَتْ مِنَ الدُّخُولِ إِلَى قَلْبِهِ؛ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي طَالَمَا نَسِيَهَا أَوْ تَنَاسَاهَا، أَوْ حَادَ عَنْهَا وَكَرِهَ سَمَاعَهَا، وَاجْتَهَدَ فِي الْفِرَارِ مِنْ طَرِيقِهَا، لَكِنَّهُ هَرَبَ مِنْهَا إِلَيْهَا!

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الْجُمُعَة: 8].

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ الْمُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الْآخِرَةِ

إِنَّ الْأَمْرَ جِدٌّ وَلَيْسَ بِالْهَزْلِ. صَوَّرَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ذَلِكَ حِينَ قَالَ: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ [الْقِيَامَةِ: 26-28].

هَذَا تَصْوِيرٌ حَقِيقِيٌّ لِلْمَشْهَدِ الْأَخِيرِ مِنْ حَيَاةِ الْإِنْسَانِ وَهُوَ يُغَادِرُ الدُّنْيَا، شَاءَ ذَلِكَ أَمْ أَبَى، لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ شَيْءٌ.

(كَلَّا): أَدَاةُ رَدْعٍ وَزَجْرٍ، تَتَضَمَّنُ الْإِنْكَارَ عَلَى ابْنِ آدَمَ تَعَلُّقَهُ بِالدُّنْيَا وَنِسْيَانَهُ الْمَوْتَ وَالْآخِرَةَ. وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى: حَقًّا. ﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾: أَيْ بَلَغَتِ الرُّوحُ التَّرَاقِيَ، وَجَمْعُهَا "تَرْقُوَةٌ"، وَهِيَ الْعِظَامُ الَّتِي بَيْنَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ وَالْعَاتِقِ، وَهُوَ مَوْضِعُ حشْرَجَةِ الرُّوحِ فِي أَعْلَى عِظَامِ الصَّدْرِ تَهَيُّؤًا لِلْخُرُوجِ مِنَ الدُّنْيَا.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾: يَقُولُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ الْمَوْتَ: هَلْ مِنْ طَبِيبٍ مَاهِرٍ حَاذِقٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَشْفِيَ مِنْ هَذِهِ الْعِلَّةِ؟ وَقِيلَ: هَلْ مِنْ رَاقٍ يَرْقِي؟ (وَذَكَرَ الْإِمَامُ الطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ رِوَايَةً عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ: هَلْ تَصْعَدُ بِهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ أَمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ؟).

لَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ! لَا طَبِيبٌ يُمْكِنُهُ دَفْعُ قَدَرِ اللهِ، وَلَا رَاقٍ يَمْلِكُ التَّخْفِيفَ عَنْ هَذَا الْمُحْتَضَرِ. وَاسْمَعْ لِذَاكَ الْقَائِلِ إِذْ قَالَ:

إِنَّ الطَّبِيبَ بِطِبِّهِ وَدَوَائِهِ * لَا يَسْتَطِيعُ دَفْعَ مَكْرُوهٍ أَتَى**

مَا لِلطَّبِيبِ يَمُوتُ بِالدَّاءِ الَّذِي * قَدْ كَانَ يُبْرِئُ مِنْهُ فِيمَا مَضَى؟**

هَلَكَ الْمُدَاوِي وَالْمُدَاوَى وَالَّذِي * جَلَبَ الدَّوَاءَ وَبَاعَهُ وَمَنِ اشْتَرَى**

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾: "ظَنَّ" هُنَا بِمَعْنَى: تَيَقَّنَ وَتَأَكَّدَ، وَزَالَ عَنْهُ الرَّيْبُ الَّذِي كَانَ يَحُومُ حَوْلَ قَلْبِهِ بِإِيعَازٍ وَإِلْقَاءٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، أَنَّ الْمَوْتَ مَا زَالَ بَعِيدًا عَنْهُ، وَهُوَ بِمَنْأًى عَنْهُ، لِيَتَمَتَّعَ بِحَيَاتِهِ وَلَا يُفَكِّرَ فِيهِ فَيُعَكِّرَ صَفْوَ أَيَّامِهِ وَلَيَالِيهِ.

وَلَقَدْ تَيَقَّنَ الْعَبْدُ أَنَّهُ سَيُغَادِرُ الدُّنْيَا دُونَ عَوْدَةٍ إِلَيْهَا. سَيُفَارِقُ كُلَّ لَذَّةٍ، وَكُلَّ شَهْوَةٍ، وَكُلَّ مُتْعَةٍ. سَيُفَارِقُ دَارَهُ، وَأَهْلَهُ، وَأَوْلَادَهُ، وَمَالَهُ، وَمُمْتَلَكَاتِهِ، وَلَنْ يَرْجِعَ لَهُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ شَيْءٌ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا الَّتِي جَمَعَ فِيهَا مَا جَمَعَ. لَقَدْ صَارَ نَصِيبُهُ قِطْعَةً بَيْضَاءَ مِنَ الْقُمَاشِ (الْكَفَنِ)، إِنْ قَدَّرَ اللهُ لَهُ أَنْ يَجِدَهَا، فَرُبَّمَا مَاتَ بَعِيدًا عَنْهَا!

فَإِذَا خَرَجَتِ الرُّوحُ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَاذَا قَدَّمَ هَذَا الْمِسْكِينُ لِنَفْسِهِ عِنْدَ رَبِّهِ؟ وَقَالَ الْحَاضِرُونَ: يَا تُرَى! مَاذَا تَرَكَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسَّيَّارَاتِ وَالْعَقَارَاتِ وَالْأَرْصِدَةِ وَالْمَشَارِيعِ؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الْأَنْعَام: 94].

وَاسْمَعْ إِلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ انْتَقَمَ اللهُ مِنْهُمْ فَأَغْرَقَهُمْ بِسَبَبِ الْكُفْرِ وَالْإِعْرَاضِ وَالْعِنَادِ. قَالَ اللهُ...

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلَا (عَنْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ): ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا

فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدُّخَانُ: 24-29].

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [الْقِيَامَةُ: 29] .قَالَ الْإِمَامُ مُجَاهِدٌ (فِي مَعْنَاهَا): الْتَفَّتْ شِدَّةُ الدُّنْيَا بِشِدَّةِ الْآخِرَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ .وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الْتَقَى آخِرُ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا بِأَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الْآخِرَةِ.

فَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا، وَبَقِيَ جَسَدُهُ، فَمَا الْمَطْلُوبُ مِمَّنْ حَضَرَهُ مِنْ أَهْلِهِ؟

أَوَّلًا :الْمَطْلُوبُ: الصَّبْرُ، وَالرِّضَا بِالْقَضَاءِ، وَالِاسْتِرْجَاعُ (قَوْلُ: إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ). وَهَذَا مَوْطِنٌ قَلَّمَا يَثْبُتُ فِيهِ الْعَبْدُ؛ لِعَدَمِ الْعِلْمِ بِالدِّينِ الْحَقِّ، وَعَدَمِ تَقْدِيرِ أَهْلِ الشَّرِيعَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ، وَعَدَمِ مُتَابَعَتِهِمْ، دُونَ النَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ ذَلِكَ .فَقَدْ يَقَعُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ نُزُولِ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ (الْمَوْتِ) فِيمَا يُغْضِبُ اللهَ، وَقَدْ يَجُرُّهُ ذَلِكَ لِقَوْلِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ -عِيَاذًا بِاللهِ!- (نَسْأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا السَّلَامَةَ)، كَمَا يَقُولُ كَثِيرٌ مِنَ الْعَوَامِّ: (واش درت لرَّبي!)، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ السَّيِّئَةِ.

ثَانِيًا :وَكَذَلِكَ يُطْلَبُ مِنْ أَهْلِ الْمَيِّتِ أَنْ يُجَرِّدُوهُ مِنْ ثِيَابِهِ السَّابِقَةِ (الَّتِي مَاتَ فِيهَا)، وَيَسْتُرُوا جَمِيعَ جَسَدِهِ (بِثَوْبٍ سَاتِرٍ).

وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُوضَعَ عَلَى جَسَدِهِ شَيْءٌ، مِثْلُ السِّكِّينِ (كَمَا يَفْعَلُ الْبَعْضُ لِطَرْدِ الشَّيَاطِينِ أَوِ انْتِفَاخِ الْبَطْنِ، وَهُوَ مِنَ الْبِدَعِ)، أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَتَاعِهِ الْخَاصِّ مِثْلِ الْخَاتَمِ أَوِ السَّاعَةِ أَوْ غَيْرِهَا، أَوِ الْمُصْحَفِ.

وَكَذَلِكَ (يُمْنَعُ) إِيقَادُ الشُّمُوعِ، أَوْ فَتْحُ الْقُرْآنِ، أَوْ وَضْعُ كُتُبٍ عَلَيْهَا آيَاتٌ قُرْآنِيَّةٌ (عِنْدَ رَأْسِهِ)، فَإِنَّ فِعْلَ ذَلِكَ شَنِيعٌ عِنْدَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا (لِأَنَّهُ مِنَ الْبِدَعِ الْمُحْدَثَةِ).

وَيَجُوزُ إِعْلَانُ وَفَاةِ الْمَيِّتِ (لِتَجْهِيزِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَدَفْنِهِ)، بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ (هَذَا الْإِعْلَانُ) كَالنِّيَاحَةِ عَلَيْهِ (أَوْ كَنَعْيِ الْجَاهِلِيَّةِ). وَدَلِيلُ (تَحْرِيمِ النِّيَاحَةِ) أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ النَّائِحَةَ.

(وَكَانَ مِنْ صُوَرِ النَّعْيِ الْجَاهِلِيِّ الْمُحَرَّمِ: الصِّيَاحُ) فِي الدُّورِ وَالطُّرُقَاتِ وَأَمَاكِنِ تَجَمُّعِ النَّاسِ، وَيَذْكُرُونَ خِصَالَ الْمَيِّتِ (بِتَعْدِيدٍ وَمُبَالَغَةٍ)، وَإِظْهَارِ الْحُزْنِ (الْمُفْرِطِ) عَلَيْهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ (مِمَّا اسْتُنْكِرَ فِي الشَّرْعِ).

وَيُسْتَحَبُّ لِلْمُخْبِرِ بِوَفَاةِ الْمَيِّتِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (حِينَ نَعَى النَّجَاشِيَّ لِأَصْحَابِهِ): «اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ». (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

وَتَكْرَارُ الْأَمْرِ بِتَذْكِيرِ النَّاسِ بِتَارِيخِ وَفَاةِ الْمَيِّتِ، وَإِظْهَارُ صُورَتِهِ، وَالتَّأَسُّفُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَجُوزُ، وَهُوَ مِنْ عَادَاتِ النَّصَارَى؛ لِأَنَّ فِيهِ تَجْدِيدًا لِلْأَحْزَانِ وَإِثَارَةً لِلْأَشْجَانِ.

وَقَدْ تَأْتِي فُرْصَةٌ فَنَذْكُرُ بَعْضَ بِدَعِ الْجَنَائِزِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَهَذَا وَغَيْرُهُ سَنَتَعَرَّضُ لَهُ فِي رِحْلَاتِنَا الْقَادِمَةِ بِعَوْنِ اللهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّ الْإِشَارَةَ قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا بِانْتِهَاءِ الرِّحْلَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ، وَمَا ذَكَرْنَا فِيهَا.

أَسْأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يَتَقَبَّلَ مِنَّا هَذِهِ الطَّاعَةَ وَالِانْتِفَاعَ بِهَذَا فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

يَا عَبْدَ اللهِ، ارْكَبْ مَعَنَا السَّفِينَةَ المُاخِرَةَ إِلَى الدِّيَارِ الآخِرَةِ

وَهَكَذَا نَتَحَرَّكُ فِي سَفِينَتِنَا المُاخِرَةِ إِلَى الآخِرَةِ، عَائِدِينَ بِالاتِّجَاهِ المُعَاكِسِ، رَاجِعِينَ إِلَى دِيَارِنَا وَأَهْلِينَا، سَالِمِينَ آمِنِينَ غَانِمِينَ. وَنَحْنُ نَقُولُ: (آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ).

وَنَحْنُ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِنَا، يُوَجَّهُ بَلَاغٌ مِنْ قُبْطَانِ السَّفِينَةِ إِلَى جَمِيعِ رُكَّابِهَا، وَفِيهِ النُّصْحُ وَالإِرْشَادُ وَالتَّذْكِيرُ وَالتَّوْصِيَةُ، فَأَقُولُ:

يَا مَعْشَرَ الرُّكَّابِ، بَادِرُوا آجَالَكُمْ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَكُمْ (المَوْتُ)، مِنَ القُرُبَاتِ وَجَمِيعِ الحَسَنَاتِ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ.

..قَبْلَ أَنْ تُمْنَعُوا وَيُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ذَلِكَ؛ بِكَثْرَةِ الأَسْقَامِ وَالأَشْغَالِ وَالفِتَنِ وَتَرَدِّي الأَحْوَالِ. وَزَمَنُ الطَّاعَةِ إِذَا فَاتَكَ يَا عَبْدَ اللهِ لَنْ يَعُودَ وَلَنْ يُعَوَّضَ، فَانْتَبِهْ لَهُ فِي وَقْتِهِ، وَلَا تُفَوِّتْهُ عَلَيْكَ؛ لِكَيْ لَا يَكُونَ حَسْرَةً عَلَيْكَ.

أَسْأَلُ اللهَ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُعِينَنَا عَلَى الاشْتِغَالِ بِأَنْفُسِنَا، وَقَدْ عَزَّ ذَلِكَ كَثِيرًا بَيْنَ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْعَصِيبِ. فَمَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، اشْتَغَلَ بِإِصْلَاحِهَا وَتَطْوِيعِهَا للهِ تَعَالَى. وَمَنْ عَرَفَ رَبَّهُ، عَمِلَ لِدُنْيَاهُ بِقَدْرِ حَاجَتِهِ إِلَيْهَا وَمَقَامِهِ فِيهَا، وَعَمِلَ لِآخِرَتِهِ بِقَدْرِ مَقَامِهِ فِيهَا.